362.11:M96aA C.1

المنجد ، صلاح الدين .

بيمارستان نور الدين .

NOV 20 A693

362.11
M96aA
NO 24 C.1

J. Lib.
1 FEB 1980

F.A.

362.11
M96aA

LIBRARY
OF BEIRUT

Cat. 8 Dec. 53

ابنية دمشق التاريخية

بيمارستان نور الدين

وضعه

صلاح الدين المنجد

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

دمشق

١٩٤٦

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

وعز الشرق أوله دمشق

(شوقي)

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه أولى الدراسات المبسّطة التي عزمتُ على إخراجها عن أبنية دمشق التاريخية، وإنه لعمل أشعر بما يحيط به من مصاعب وما يحتاج إليه من جهود ؛ فهذه ناحية جديدة في التأليف عن آثار دمشق لم تُطرق من قبل بمثل هذا النهج الذي سلكته . وأعتقد ان هذا العمل هو أول ما ينبغي ان نُعنىٰ به ، لنُطلع ابناءنا على ما في دمشق الجميلة من روائع الفن الاسلامي ، ولنوقظ فيهم الشعور بالعزّة التي توحيها اليهم هذه الآيات البارعات ، فلعلهم ان يفيدوا منها ، وان يضيفوا إلى آثار الأجداد آثاراً فيها من عظمة الماضي ، ومن الحياة ، مايضمن لها الخلود .

وإني ارجو ان أوفق إلى إخراج حلقات هذه السلسله فأكون قد قمت ببعض ما يجب عليّ لمدينتي الخالدة دمشق .

صلاح الدين المنجد

المصادر

١ – المخطوطات العربية

ابن عساكر	تاريخ دمشق	نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق
ابن رجب	طبقات الحنابلة	〃 〃 〃 〃
النعيمي	تنبيه الطالب والدارس	نسخة المجمع العلمي العربي بدمشق
العلموي	مختصر تنبيه الطالب	نسخة المجمع العلمي ونسخة خزانة محمد باشا الجليلي في الموصل
بدر الله	منادمة الأطلال	نسخة مديرية الاوقاف بدمشق
〃	مختصر المنادمة	نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق

٢ – الكتب المطبوعة

المقدسي	كتاب الروضتين في أخبار الدولتين
ابن جبير	الرحلة
ابن القلانسي	ذيل تاريخ دمشق
ابن كثير	البداية والنهاية
ابن بطوطة	الرحلة
ابن أبي اصيبعة	عيون الأنباء في طبقات الأطباء
القفطي	أخبار الحكماء
ابن الاثير	الكامل في التاريخ

ابن شداد	سيرة صلاح الدين
ابن ابي الفضائل	سيرة سلاطين المماليك
العماد الاصفهاني	تاريخ دولة آل سلجوق
القلقشندي	صبح الاعشى
ابن تغرى بردى	النجوم الزاهرة
ابن العماد	شذرات الذهب
ابن خلكان	وفيات الاعيان
ابن منقذ	الاعتبار
أحمد عيسى	تاريخ البيمارستانات في الاسلام
المحبي	خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر
المنجد	دمشق القديمة أسوارها أبراجها أبوابها
مجلة المجمع العلمي	(مقالات ونقد للأمير جعفر الحسني والشيخ محمد دهمان)

٣ — الكتب الغربية

Herzfeld,	Damascus, Studies in architecture I et II
wulzinger & watzinger,	Damascus II. Die islamische stadt
Creswell.	Origin of the Cruciform plan of the Caïrence Medrasas
Hartmann,	Art, (Damas) dan Encycl de l'Islam
Zettersteen,	Art, (Nur eddin) dans Encycl. de L'Islam
Diez,	» (Mukarnas) » » » » Suppl.
Houtsma,	Recueil de textes relatifs à L'histoire des seljoucides
Sauvaget,	Monuments historiques de Damas.
»	Monuments Ayyoubides de Damas. Ietll

تمهيد

— ١ —

نور الدين في دمشق

نحن في القرن السادس الهجري ، قُبَيْلَ منتصفه ، والبلاد الاسلامية بأيدي ملوك وأمراء مختلفة : ففي العراق خليفة عباسي اسمه المقتفي ، قد وَكل أمره إلى السلاجقة الأتراك . وفي مصر خليفة فاطمي اسمه الظافر ، قد ضعف شأنه وأسرته لذته . والشام مقسّمة ، شطر بيد الصليبيين ، في الساحل وفلسطين . وشطر ، وفيه دمشق بيد أمير بوريّ ضعيف ، اسمه مجير الدين آبق . وشطر ثالث ، فيه حلب والفرات ، بيد أمير من أتابكة السلاجقة اسمه نور الدين ، كان يوالي خليفة بغداد ويدافع عن البلاد .

وإذا بأهل مصر ينقلبون على خليفتهم الظافر فيقتلونه (ت ٥٤٨ هـ) ثم يولون من بعده ابنه الفائز (ت ٥٥٥ هـ) ، وهو صبي صغير . عندئذ كتب خليفة بغداد إلى نور الدين بالولاية على الشام ومصر . وكان نور الدين يرغب في دخول دمشق ليحميها من الفرنج الذين كادوا أن يحيطوا بها ، والذين اشتد سلطانهم وامتد . ولقد رأى أنه لايستطيع الوصول اليهم ، في الجنوب ، لأن دمشق بينه وبينهم . وكان يخشى بسبب ضعف والي دمشق ، وضعف الخليفة الفاطمي نفسه ، أن يحاصر الفرنج هذه المدينة فيدخلوها ، ويكون ذلك معرّة للاسلام كله . وكان الفرنج ، من جهة أخرى ، يرغبون في امتلاك دمشق ، ولقد حاولوا ذلك مراراً ، خوفاً أن يملكها

نور الدين فيذيقهم العذاب لشدة بأسه وعظيم وطأته . فعزم نور الدين أن يفتح دمشق ، ولا يرتدّ عنها كما ارتد في سنة ٥٤٥ هـ وفي السنة التي أعقبتها . ليطرد واليها منها ، ويحميها من كيد الفرنج ويوحدها وحدة سياسية . فركب في جيشه وتقدم نحوها . فحاصر عشرة أيام ، ثم سلم إليه أهل البلد بلدهم لأسباب سياسية واقتصادية فدخل من الباب الشرقي وانتزعها من مجير الدين آبق الذي استنجد بالفرنج وحوصر هو ، ووزيره مؤيد الدولة علي بن الصوفي ، في قلعة دمشق .

و كان ذلك في اليوم العاشر من صفر سنة ٥٤٩ هـ واليوم الخامس والعشرين من ابريل سنة ١١٥٤ م .

وقامت الدولة النورية بدمشق ، وظلت فيها عشرين عاماً إلى سنة ٥٦٦ هـ ـ ١١٧٤ م ، حيث توفي نور الدين ، وانتقلت الدولة إلى صلاح الدين فبدأ حكم الأيوبيين

—٢—

من هو نور الدين

ويجدر بنا ، ونحن نفتتح سلسلة عن آثار نور الدين التاريخية بدمشق ، أن نترجم لهذا الرجل ترجمة قصيرة .

ولد نور الدين سنة ٥١١ هـ . كان جده آق سنقر (ت ٤٨٦ هـ) من أتابكة السلطان السلجوقي ملك شاه (ت ٤٨٥ هـ) ، فولاه على الجزيرة والموصل . و كان أبوه زنكي (ت ٥٤١ هـ) . قد ولي الموصل مكان أبيه ، ثم أخذ حلب ، فلما مات ، قسمت

مملكته شطرين فاستولى ابنه غازي (ت ٥٤٤ هـ) على الموصل، وبقي ابنه الثاني نور الدين في حلب.

وقل أن تجد خليفة أو ملكا، اجتمع فيه من الصفات ما اجتمع في هذا الرجل

ضريح نور الدين في المدرسة النورية بدمشق

العظيم، وهذا يظهر لنا إذا دققنا في الأحوال التي كان بها، والفوضى التي وجد البلاد عليها، والأعداء التي حاربها والبلاء الذي أبلاه، ثم الاعمال التي قام بها.

ونستطيع أن نوجز أبرز صفات نور الدين فيما يلي :

آ – عمراني كبير : كان ميالاً إلى العمران . ترك في دمشق وحلب وحماة والموصل والمدينة وغيرها، من الآثار مالم يتركه أحد قبله فقد عمر المساجد والمدارس ودور الشفاء والخوانق والجسور والخانات . وأصلح الطرق وجدّد الأقنية ووسّع الأسواق وحصّن الأسوار .

ب – محب للعلم : أنشأ المدارس الكثيرة لنشر الثقافة الدينية . كالقرآن والسنة والحديث ، ومذاهب الفقهاء . وهو أول من أنشا مدرسة لتعليم الحديث . ونَصَب جماعة من المعلمين لتعليم من لايستطيع التعلّم . وحصل على عدد كبير من كتب العلوم المختلفة ووقفها على العلماء والطلاب . وكان يكرّم العلماء ويجيبهم إلى ما يطلبون .

و – إنساني : أدّر الصدقات عَلَى اليتامى والضعفاء ، وتعهّد ذوي الحاجه ، وأنشأ دور الشفاء للمرضى وأوقف الأوقاف عليهم وعلى العميان والمجانين .

ه عادل : أكثر في مملكته من بناء دور العدل ، وحضرها هو بنفسه واستمع من المتظلمين الدعاوى والبيّنات طلباً للانصاف وإقامة العدل .

هـ – مقاتل للصليبيين : كان همه الأول أن يهزم جندهم ويطردهم من البلاد ، لتكون موحدة كلّها . وكان في قتاله إيّاهم ثابت القدم ، صليب الضرب ، ذا بأس وسلطان . واستطاع أن ينتزع منهم مدناً وحصوناً كثيرة . وهو في سبيل ذلك سوّر المدن وحصّنها ؛ فبنى أسوار حلب وحماة ودمشق ومنبج .. وجدّد الخنادق . وأقام الأبراج ليدافع عن البلاد ويحميها .

— ٣ —

آثاره في دمشق:

أما آثاره في دمشق فكثيرة ، ومعظمها من صنعه . ونلاحظ أن هذه الأبنية كانت وسائل إلى أهدافه . فهو قد عُني بقتال الصليبيين ، فازدهر العمران الحربي في دمشق . وعني بنشر السنة ومحاربة المذهب الفاطمي ، فأسّس فيها المدارس للشافعية والحنفية والحديث . وعُني بإقامة شعائر الدين ، فعمّر وجدّد مئآت من الجوامع . ورحم رعيته فعمر لها دور الشفاء .

وأهم مابناه نور الدين في دمشق وما سنذكره في نشراتنا مايلي :

آ — تحصين سور مدينة دمشق وتجديده وبناء الأبراج فيه . وتجديد بعض الأبواب وتعمير الباشورات . ولقد جمع القضاة والفقهاء مرّة وسألهم أن يصرف فواضل الأوقاف في عمارة أسوار دمشق وعمل خنادقها لصيانة أهلها فأفتوا له بذلك .

ب — البيمارستان النوري بدمشق .

و — دار الحديث النورية .

ء — المدرسة النورية الكبرى .

ه — المدرسة العمادية . مدرسة الكلاسة .

و — حمام نور الدين .

ز — جامع قلعة دمشق . جامع حارة اليهود . مشهد أبي سليمان الداراني .

أما الأسوار والأبراج والأبواب فقد تحدثنا عنها في كتابنا « دمشق القديمة أسوارها . أبراجها . أبوابها » . وسيكون موضوع هذه الدراسة بيمارستان نور الدين .

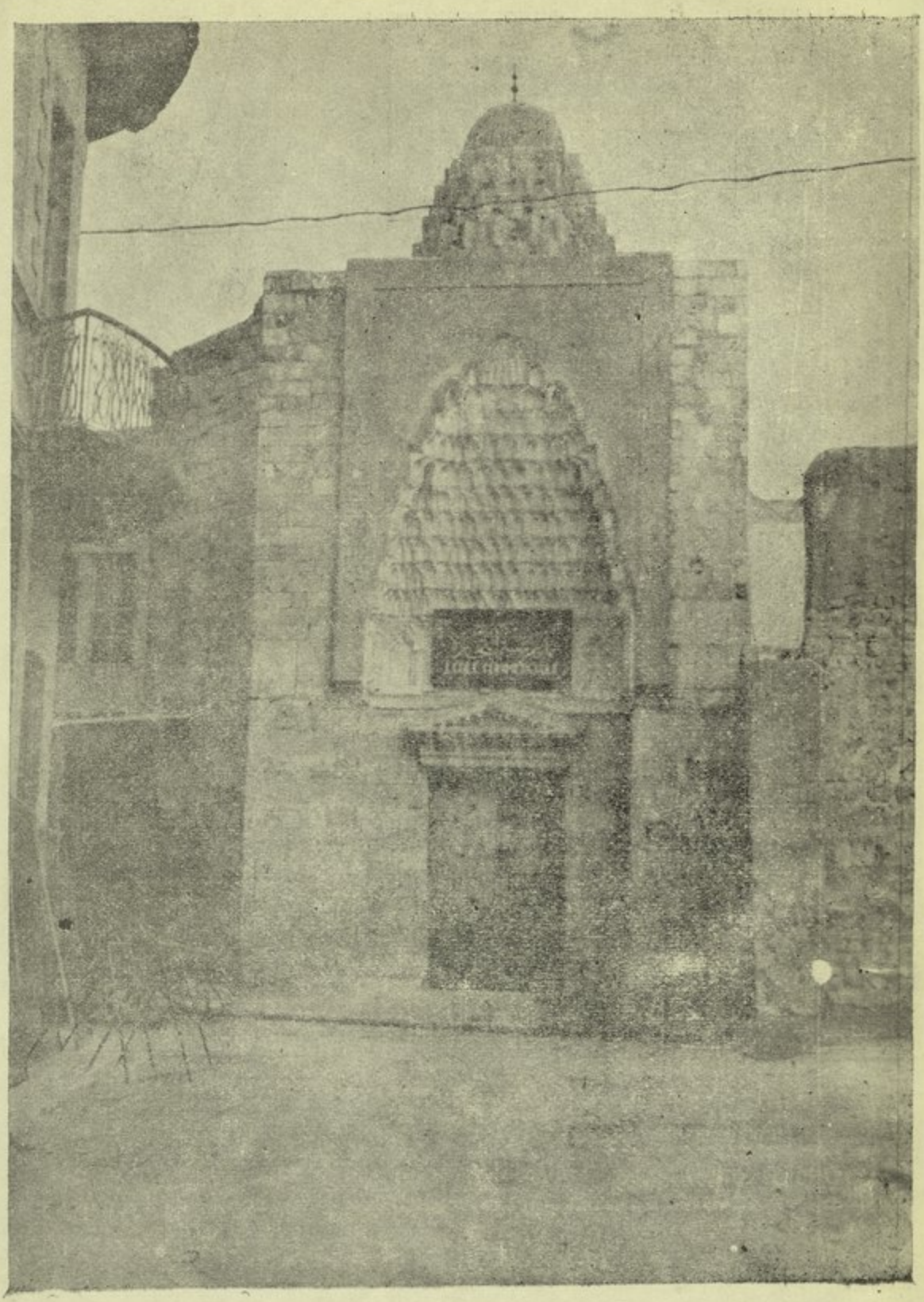

بيمارستان نور الدين

البيمارستان لفظة فارسية ركبت من كلمتين « بيمار » ومعناه مريض و « ستان » ومعناه « مكان » ؛ فتكون إذاً « مكان المرضى » أو « دار الشفاء » أو « مستشفى » .

وهذا البيمارستان هو بناء تاريخي مسجل ، رقمه (١٧) في قائمة الأبنية التاريخية .

موقعه — يقع في الزقاق المسمى اليوم باسمه « زقاق المارستان » وهذا الزقاق يتفرع عن سوق الحميدية ، ويقابل الزقاق المؤدي إلى المصرونية ، من جهة الجنوب . وكان يسمى في القديم « الرصيف » .

وفي هذا المكان ، داخل البيمارستان أو خارجه ، قدّر ولزنجر وسوفاجه أن سور المدينة الروماني القديم ، قبل اتساعه نحو الغرب ، كان يمر منه . ولا بد من إجراء تنقيبات لإثبات ذلك .

تاريخه — بني هذا البيمارستان سنة ٥٤٩ هـ . وهي السنة التي دخل نور الدين فيها دمشق فيكون أول بناء من أبنيته فيها .

سبب بنائه — والسبب في بنائه ، أن نور الدين كان قد أسر بنفسه في بعض غزواته أحد ملوك الفرنج الصليبيين . فعرض الصليبي عليه أن يطلقه لقاء مال عظيم يفتدي به ، قدّر بثلاثمائة ألف دينار . فأطلقه نور الدين ، وابتنى بما أخذه ، أو ببعضه ، هذا البيمارستان .

وهو أول بيمارستان عظيم في دمشق ، لم يُبن فيها قبله مثله ولا بعده .

وقفه – وقد أوقفه نور الدين على الفقراء، دون الأغنياء، ولكنه استثنى بعض الأدوية التي لا توجد إلا فيه، فمكّن الأغنياء من أخذها إذا احتاجوا إليها ولم يجدوها في مكان آخر. وكان كل من جاء البيمارستان طبّب وأعطي شرابه، وإن كان غريباً احتُفي به وقدم إليه أحسن المآكل.

الناظر في أمره – وكان ينظر في أمره قاضي الشافعيين، أو وكيل بيت المال وناظر الخزانة، أو المحتسب، أو ناظر ديوان النائب بالشام. ومنذ القرن الثامن استمر النظر في أمره بأيدي ديوان نائب السلطنة وفي أوائل عهد الأتراك كان يتولاه القاضي؛ ثم تولاه الأعيان.

مرضاه – وكانت المرضى التي ترد إليه كثيرة. وكانت نفقاته تبلغ مبلغاً كبيراً. حتى أنه كان ينفق فيه كل يوم خمسة عشر ديناراً. وكانت أسماء المرضى تثبت في صحائف، وتكتب النفقات التي يحتاجون إليها، من الأدوية والأغذية، فتقدّم إليهم، ويعني بأمرهم، فلا يخرجون منه حتى يشفون.

وكانت الخدمة تتردد أمام المرضى، يخدمونهم في كل مايطلبون.

أطباؤه – وقد اختار نور الدين من الأطباء رأساً له أبا المجد بن أبي الحكم. وكان من أكبر الأطباء في عصره، فكان يتردد إليه ليعالج المرضى فيه، فيتفقد أحوالهم، ويكتب ما يحتاجه كل مريض من المداواة والتدبير والأغذية.

وقد نظر في معالجة المرضى فيه أكبر الأطباء في كل عصر، كمهذب الدين النقاش (ت ٥٧٤ هـ) وموفق الدين ابن المطران الذي توفي (٥٨٧ هـ)

وفي خزانة كتبه ما يقارب عشرة آلاف كتاب طبي ، وموفق الدين عبد العزيز (ت ٦٠٤ هـ) ومهذب الدين عبد الرحيم الكحال (ت ٦٢٨ هـ) ، والجمال أحمد ابن عبد الله (ت ٦٤٩ هـ) ، وابن قاضي بعلبك . وعمران الإسرائيلي (ت ٧٣٦ هـ) وعبد الله بن عبد الحق (ت ٨٩١ هـ) . وغيرهم كثير .

خزانة كتبه – وكان من الطبيعي أن يكون في البيمارستان خزانة كتب طبية يرجع إليها الأطباء . ولهذا أوقف نور الدين عليه جملة من الكتب الطبية كانت توضع في الخرستانين في صدر الإيوان الكبير .

دروس الطب فيه – وكان الإيوان الشرقي الكبير يتخذ مكاناً لتدريس الطب . وكان مفروشاً أحسن فرش . وكان أبو المجد ، بعد تفقده المرضى من أعيان الدولة ، ومرضى البيمارستان ، يأتي فيجلس فيه . ويحضر الكتب فكانت جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ، ثم يُجري مباحث طبية ، ويقرئ التلاميذ ، ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مقدار ثلاثة ساعات كل يوم .

* * *

البيمارستان في مختلف العصور

وأهم الأمور التي طرأت على البيمارستان ما يلي .

آ – في سنة ٥٤٩ هـ بُني البيمارستان .

ب – حدثت زلزلة كبيرة في دمشق سنة ٥٩٧ هـ فسقط بعضه . وأعيد بناء بعض أجزائه .

ج – أضاف إليه بدر الدين ابن قاضي بعلبك ، الذي ولاّه الملك الجواد مظفر الدين الرئاسة على جميع الأطباء ، دوراً ملاصقة له ، وجعلها من جملته ، وكبّر بها قاعات كانت صغيرة ، وبناها أحسن البناء ، وجعل الماء فيها جارياً و كان ذلك سنة ٦٣٥ هـ .

د – جددت القاعة اليمنى بعد المدخل في نيابة آقوش النجيبي في زمن الملك الظاهر بيبرس ، بعد منتصف القرن السابع الهجري .

هـ – جددت بعض أقسامه في زمن السلطان قلاوون سنة ٦٨٢ هـ وأضيف إليه السبيل القائم على يمين الداخل من الباب الخارجي .

و – جددت القاعة اليمنى نفسها في نيابة أرغون شاه سنة ٧٤٩ هـ في أيام السلطان بدر الدين حسن .

ز – وُلي وقفه حسن باشا ابن عبد الله الأمين أحد أعيان دمشق (ت ١٠٢٧ هـ) فأقام شعائره بعد أن أضمحلّت ، وعمر أوقافه وأتى فيه من حسن التنمية بما لا مزيد عليه .

ط – ظل البيمارستان يعالج فيه المرضى إلى سنة ١٣١٧ هـ . وتوقف عن العمل عندما قامت بلدية دمشق ، في عهد ناظم باشا ، بانشاء مستشفى الغرباء في جنوب التكية السليمانيه .

ي – اتخذ ميتماً للبنات اثناء الحرب العامة .[1]

ك – اتخذ مدرسة للتجارة سنة ١٩٣٧ م – ١٣٥٦هـ

---

(١) لم يستطيع ولزنجر ووتزنجر أن يدخلا إليه سنة ١٩١٦ م لأنه كان ميتماً .

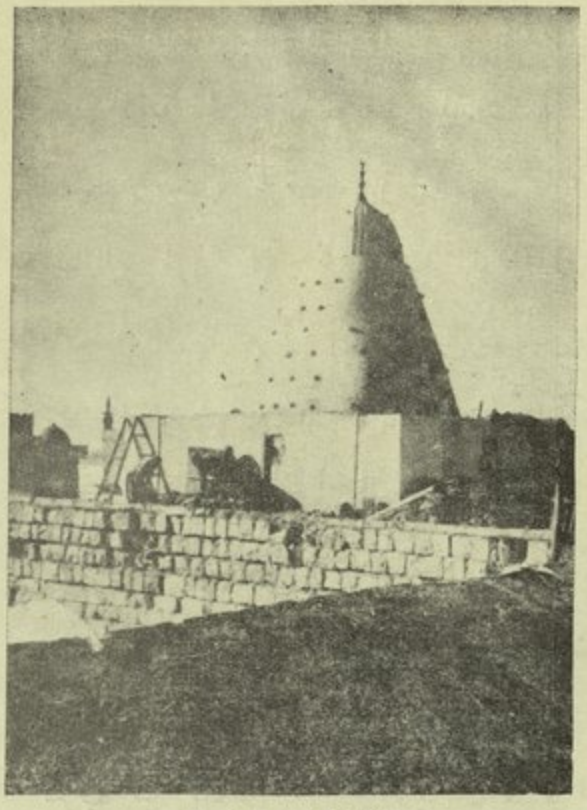

القبة قبل إصلاحها

ت ـ عنيت به مصلحة الآثار القديمة ، فأظهرت مقـرنصات قبته من الخارج ورفعت الطلاء عن نقوشه فى باطن الأواوين وأعادت تركيب بجرته ، وجددت بعض جدرانه وفرشت صحنه ، وأظهرت بعض الكتـابات التي لم تعرف من قبل ، وأعادت نوافذه الجصية على طراز نافذة قديمة فيه . وقد بدأت هذه الأعمال منذ ٩٣٨ م ، وما زالت حتى عام ٩٤٥ .

* * *

تخطيطه – يؤلف البيمارستان ، مستطيلا (٥٠ر٤٠ × ٢٧ م) ، عدا البناء الحديث الملحق به ، فتكون مساحته كله ، ما يقرب من ٥ر١٠٩٣ م٢ .

الباب الخارجى ، يلاصق يمينه سقاية مقرنصة جميلة ، وهي التي أضيفت زمن قلاوون ، ثم يفضي الباب إلى مدخل مربع ضلعه ٤٠ر٥ م ، رُفِعَتْ فوقه قبة مقرنصة من الداخل ومن الخارج ، وقد جُعل على كتفيْ المدخل من الشمال

والجنوب نصفا قبة ، تشبهان المقرنص الذي يعلو الباب الخارجي ، وتحت نصف القبة الجنوبية باب يُفضي إلى ساحة في وسطها بحرة ، أثبت هرزفلد تخطيطها ، وحولها غرف للغسيل والطهارة . إن هذه الغرف والبحرة ، لم يبق منها اليوم شيء ، ولا يُرى غير مبدأ أقواس ثلاث ، يُظن أنها كانت تمسك عقداً . ومن المدخل المربع تفضي من باب ثان يواجه الأول تماماً ، إلى دهليز طويل ذي عقد . وعلى اليمين والشمال غرفتان ، لكل منهما نافذة وباب على الدهليز . ولهاتين الغرفتين بابان آخران على الصحن .

والصحن واسع مستطيل (٢٠ × ٩٥ر١٤ م) ، تتوسطه بحرة واسعة (٧٣ر٧ × ٣٢ر٦) . تشبهها بحرة المدرسة الشامية ، وبحرة النورية ، وقد جدّدت أخيراً على طرازها بحرة المجمع العلمي (العادلية) . ويحيط بالصحن إيوان شرقي كبير فتحته ٤٥ر٧ م ، وايوانان متناظران صغيران ، في الشمال والجنوب ، الأول فتحته ٩٧ر٤ م والثاني فتحته ٩٢ر٤ م . وعلى طرفي الإيوان الشرقي الكبير غرفتان أثبتها هرزفلد منتظمتين في أضلاعها . والملاحظ أنهما غير ذلك ، فالخط الشرقي للبيمارستان ينحرف نحو الشرق كلما اتجه من الشمال إلى الجنوب ، وهكذا يكون الضلع الجنوبي للغرفة الجنوبية أطول من الضلع الشمالي للغرفة الشمالية . وهذا مثبت أيضاً في دائرة التحديد العقاري . وهكذا نرى أن الغرفة الجنوبية غير منتظمة الأضلاع ، كما نلاحظ أن قسماً كبيراً منها ومن عقدها قد سرق وأُدخل في دار مجاورة .

وكذلك نجد على طرفي الإيوان الشمالي غرفتين صغيرتين .

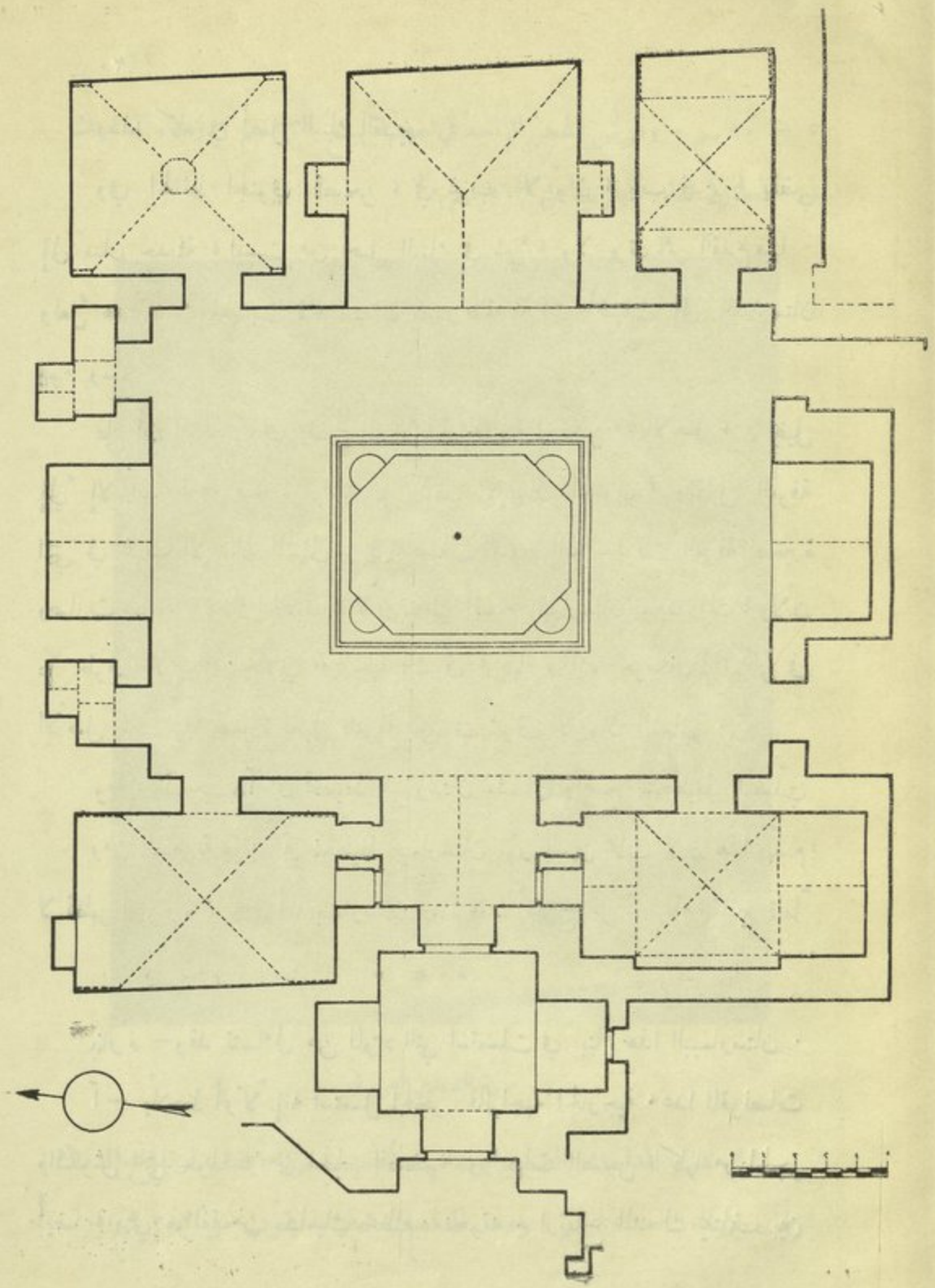

وهذا كله في أصل البناء القديم .

وفي الحائط الجنوبي للصحن ، في غرب الإيوان ، باب قديم ، يفضي إلى مبان حديثة ، ليست من أصل البناء في شيء ، ولا يرى أثر القدم فيها . ولعلّ هذا البناء الحديث قام مكان الدور القديمة التي أضيفت إلى البيمارستان يوم وسّع .

على أن الباب الذي يفضي إلى الأبنية الحديثة لم يكن ، في الأصل ، كما يخيل إليّ إلا باب غرفة صغيرة توجد على كتف الإيوان الجنوبي ، وتقابل الغرفة التي في غرب الإيوان الشمالي . فلما أضيفت الدور إليه حذفت الغرفة الصغيرة وصارت مدخلاً للبناء الجديد ؛ لأن تناظر أقسام البيمارستان يؤيد ذلك ، ولأن على طرف الإيوان الجنوبي من جهة الشرق ، باباً وراءه خرستان لم تكن في الأصل غير غرفة صغيرة تقابل الغرفة التي في شرق الإيوان الشمالي .

ويلاحظ جيداً أن تخطيط البيمارستان مثال واضح للتخطيط المصلّب ومن الصعوبة مقايسته بتخطيط بيمارستان نور الدين بحلب لأن هذا مهدّم لا تظهر أجزاؤه تماماً ، أما بيمارستان حماة فقد أُخرج عن تخطيطه القديم تماماً

* * *

بناؤه — وقد تتساءل عن المواد التي استعملت في بناء هذا البيمارستان .

آ — يُلاحظ أولاً إنه استعمل الحجر . فالواجهة الخارجية ، عدا المقرنصات والنقوش التي حولها ، من الحجر الضخم . وواجهات الصحن ، كلها من الحجر أيضا ، وهي مؤلفة من مداميك عظام منحوته ، ارتفاع المدماك يختلف بين

٥٠ — ٩٠ سم . وعرض الحجر الواحد في بعضها يبلغ ١٣٠ سم . وهذه المداميك بهذه الحجارة تعلو مايقرب من ٤٦٠ سم .

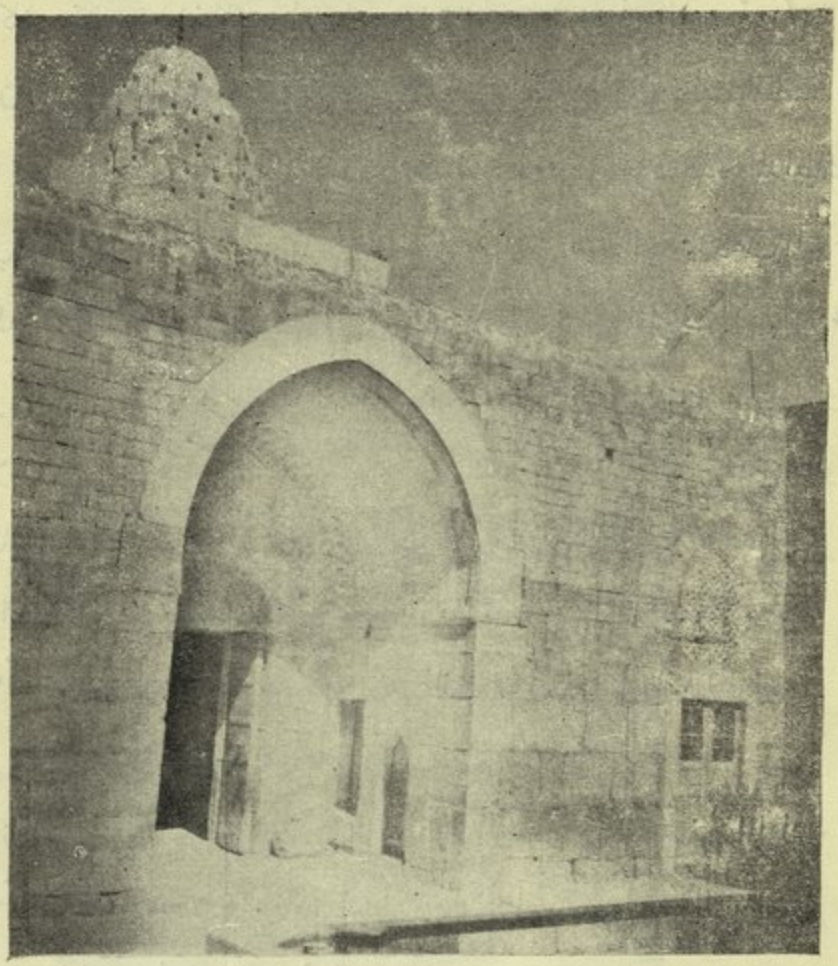

جبهة الصحن الغربية

ويلي هذه المداميك الضخام ، مداميك أصغر منحوتة أيضا ، ارتفاع المدماك يختلف بين ١٨ — ٢٥ سم . وهذه المداميك تعلو ما يقرب من ٣٨٢ سم .

وأعتقد أن وجود هذه الأحجار الضخام في بناء البيمارستان يسمح لنا بمناقشة سوفاجه الذي زعم أن جميع الأبنية في القرن السادس الهجري في دمشق ، كان مبنية بمواد خفيفة ، وبأحجار صغيرة الحجم (المباني الأيوبية ١/٣٢) وإذا كان هذا القول صحيحا على بعض الأبنيـة التاريخية في ذلك العصر ، كالنورية الصغرى ، فهو لا يطلق إطلاقا عليها جميعا . ووجود هذه المداميك الضخام في بناء البيمارستان على ارتفاع ٤٦٠ سم . يكفي لإخراجه مما ذهب إليه .

وكذلك نجد الحجر المنحوت في أطراف العقود ، وفي أطراف الأبواب ، وثمة حجر آخر ، وهو الحجر الطري ، فقد استعمل في بناء العقود نفسها .

ويُلاحظ أن بين هذه الأحجار ما أُخذ من مبان أخرى ، فالتاج الذي يعلو الباب الخارجي ، قد أُخذ من بناء روماني آخر ، ووضع فوق الباب . وهذا الحجر يشبه كل الشبه التيجان الموجودة في معبد بعل في تدمر فوق النوافذ والأبواب

٢ً – واستعمل في بنائه الآجر . وهو الذي ساعد على بناء القبة المقرنصه التي تلي الباب ، والتي يبدو فيها أثر العراق والموصل .

ونلاحظ أن الآجر ، استعمل قبل البيمارستان ، في بناء قبة صفوة الملوك .

٣ً – وهناك الخشب ، فلقد استخدم في عتبات الأبواب والأبواب نفسها ، وبعضه بسيط وبعضه منقوش .

٤ً – وأخيراً نلاحظ أن المؤنة التي بين الأحجار ، قد جعلت خليطاً من الرمل الأبيض ، والكلس ، والرماد (أصرمل) ، وهذا المزيج يؤلف مؤنة قوية جعلت في مفاصل البناء .

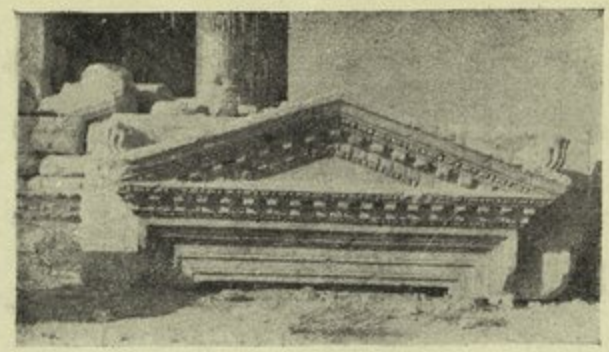

١ـ تاج من معبد بعل بتدمر ٢ـ باب البيمارستان

الزخارف والنقوش - يُعد بيمارستان نور الدين من أغنى آثار الدولة النورية بالزخارف التي كانت فيه زمن بنائه أو أُضيفت إليه فيما بعد وهذه الزخارف هي :

المقرنصات ، زخارف على النحاس ، الخشب المنقوش ، نقوش في الرخام وفي الحجر ، زخارف من الجص ، دهانات زخرفية على الجدران .

المقرنصات : أما المقرنصات فهو ما يسمونه Sta lactite أي مخروط من الجليد ، قاعدته في السقف ورأسه مدلّى إلى الأرض ، وقد أطلق هذا الاسم على كل مقرنص ، أو مجوف ، وإن لم يكن مدلّى .

والمقرنصات في هذا البيمارستان نجدها فوق الباب الخارجي ، وفي القبة التي فوق المدخل ، وفي نصفي القبة اللتين على كتفي المدخل .

وتبدأ مقرنصات الباب الخارجي فوق التاج البيزنطي الذي يعلو الباب ، إذ يبدأ إطار مستطيل حول المقرنص ؛ فيه زخارف هندسية متشابكة :مثمنات مترادفة طولاً ، وكأنها كانت مترادفة عرضا فقطعت . وقد بقي قسم منها في جانب الإطار الأيسر . ويذهب سوفاجه إلى أن زخارف الواجهة ليست من عصر نور الدين ، في حين يؤكد هرزفلد بحق أنها من ذلك العصر . وفوق التاج تقوم أربعة محاريب كبار ، يفصل كل واحد من الآخر عمود جصي ، وبين كل اثنين محراب صغير . وقد صنعت من الجص ، ورؤوسها مخرّمة . وفوقها تقوم نصف قبة مقرنصة ، ويبدو أن هذا المقرنص ، هو نصف دائرة تماماً لكنها بسطت أو بطحت . وهذا الباب بما فيه ، هو الوحيد من نوعه بدمشق .

أما القبة المقرنصة التي فوق المدخل ، فهي من أجمل القبب بدمشق ، وهي

من طراز غريب عن مدرسة العمارة السورية ، فقد حمله نور الدين معه من العراق . وقد كانت مغطاة من الخارج بالجص ، فكشفتها مصلحة الآثار القديمة . وهي تشبه قبة المدرسة النوريه الكبرى بدمشق ، غير أنها تختلف عنها في تقسيماتها وكذلك هي تُحاكي قبة السيدة زبيدة ، وقبة السهروَردي في بغداد .

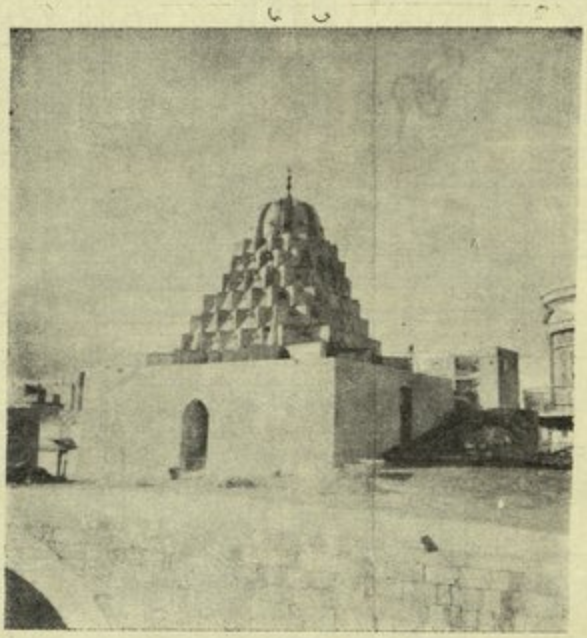

القبة المقرنصة في البيمارستان

الزخارف على النحاس والخشب المنقوش – ونجد هذه الزخارف على باب البيمارستان . وهو يُعدوحده قطعة فنية رائعة . فلقد صفّح من الخارج بالنحاس ووضع فوق الصفائح قُضب ثبتت بمسامير ذات رؤوس كروية بشكل زهرات صغار ذوات ثمانية أوراق . وقد وضعت القضبان فشكلت مسدسات هندسية منتظمة ؛ بعضها أصغر من بعض ، وقد تشابكت معاً ، ونشأ بينها نجوم خماسية

وهذا اللون من الزخارف ، بهذه الطريقه ، رائع ونادر . وعلى مصراعي الباب دقاقتان كبيرتان من النحاس ، مستديرتان ومخرمتان .

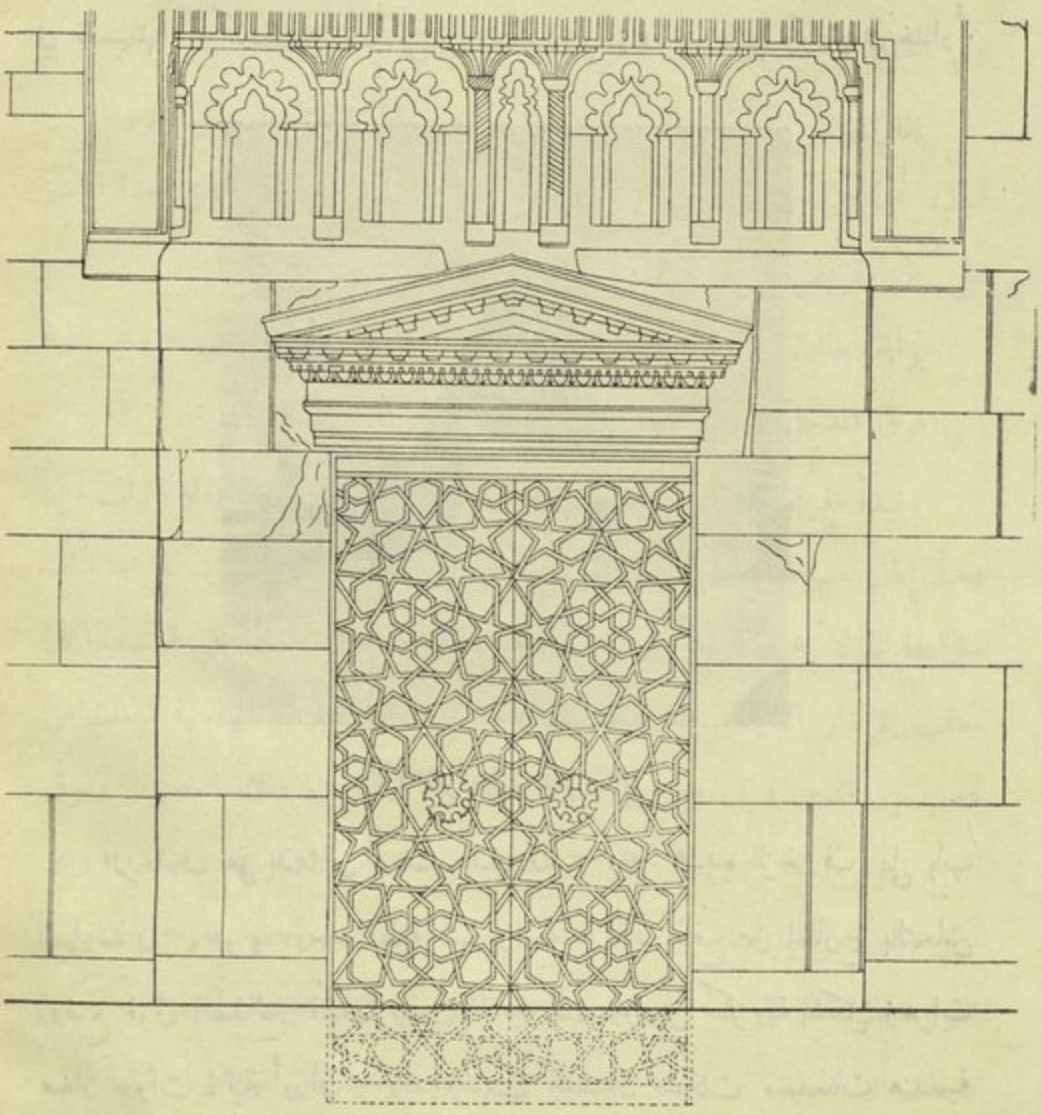

زخارف الصفائح النحاسية في الباب

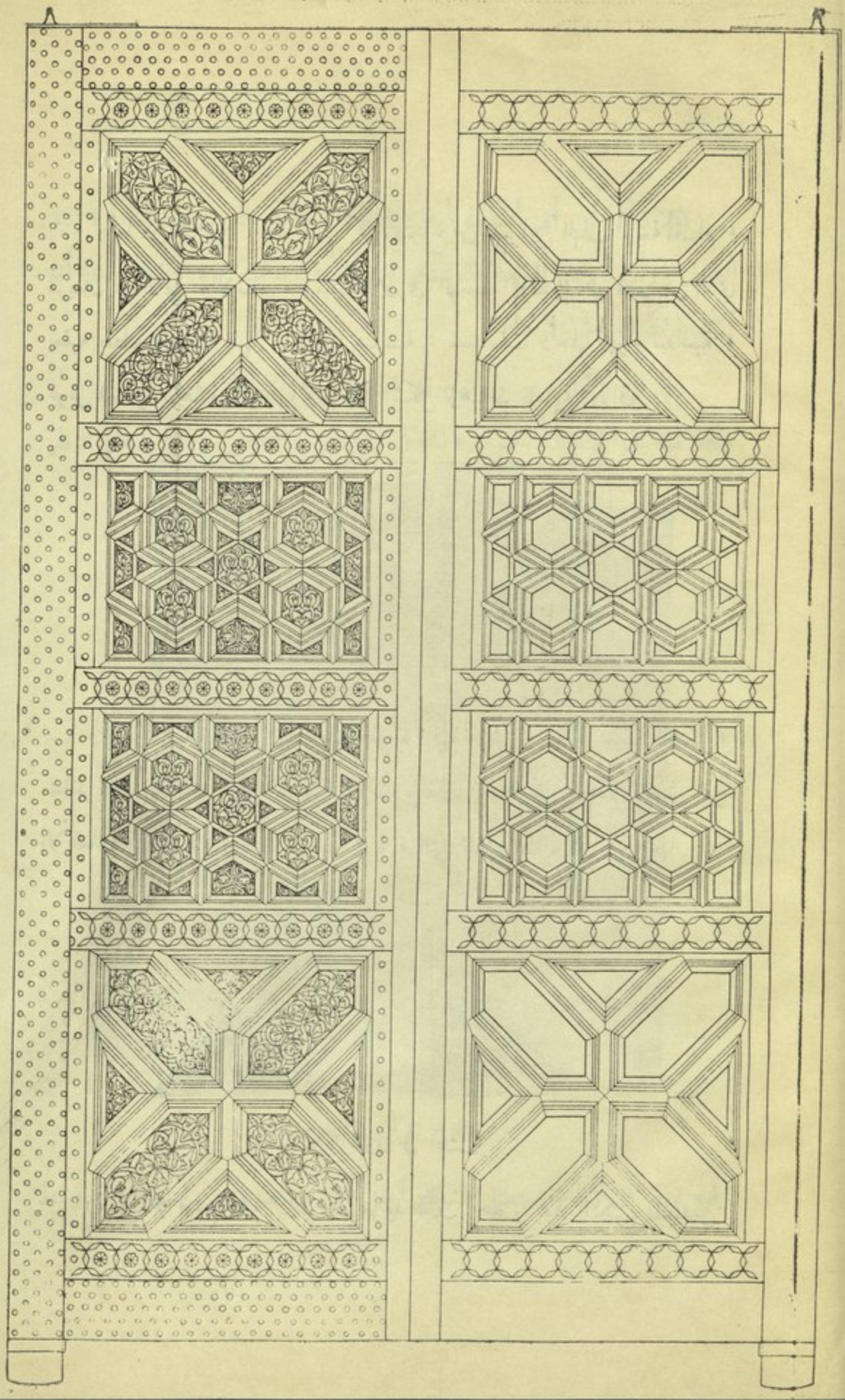

وأما من الداخل ، فقد قسم كل مصراع من مصراعيْ الباب أربعة أقسام ، مربعان في الأعلى والأسفل ، ومستطيلان في الوسط وفُصل كل قسم من الذي يعقبه بقطع حديدية فيها أشكال هندسية : مسدسات داخلها نجوم سُداسية ، غرس في مركزها مسامير رؤوسها على شكل زهرات بثمانية أوراق .

وفي المربعات والمستطيلات قطع محفورة ، فيها نقوش نباتية ، مختلفة الشكل ، متناظرة الأقسام ، دقيقة الصنع ، حفرت بإتقان . ولا تخرج هذه النقوش عن الأغصان المتشابكة والأوراق الكثيرة ، التي تفنن الصانع في إخراجها .

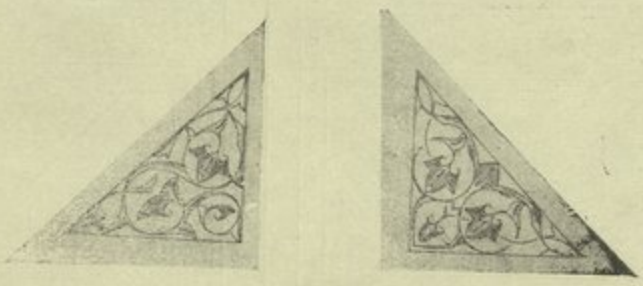

تفصيلات الزخارف في الخشب

ولعلّ الذي صنع هذا الباب هو مؤيد الدين أحمد بن عبد الكريم المهندس

فقد ذكر ابن أبي أصيبعة أنه كان نجاراً ، وأنه كان له بالنجارة اليد الطولى ، وأن أكثر أبواب المارستان من نجارته وصنعته ، وزاد الصفدي أنه كان بارعاً في نقش الرخام .

زخارف الرخام – والرخام قد استخدم كأداة زخرفية في البيمارستان ، ونجد منه في الإيوان الجنوبي ، الملوّن والمفصّص والمنقوش . ومما يدهش النظر

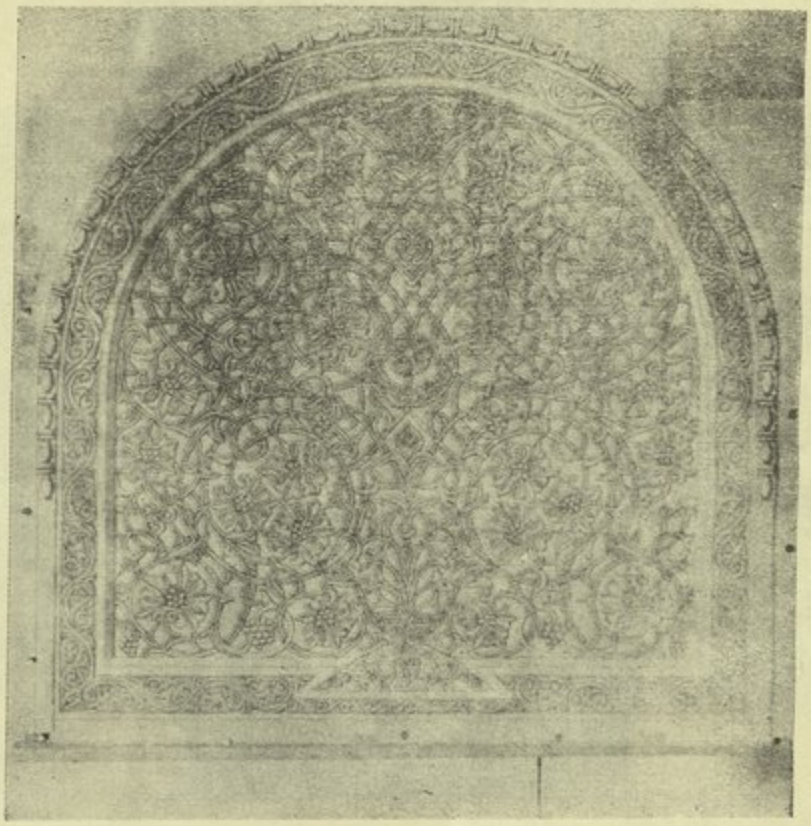

اللوح الرخامي المزخرف

فيه لوح من رخام مستطيل الشكل أغلق أعلاه بخط منحن ، وُضع في وسط

الحائط الجنوبي بمثابة محراب . وعلى جانبيه عمودان ، أُخذا من إحدى الكنائس . واللوح الرخامي نفسه ، ماهو غير لوح مذبح أُخذ ونقش فيه . ونقوشه في منتهى الروعة والجمال ، وهي تمثل أغصان كرمة متشابكه متشعبة ، كثرت أوراقها

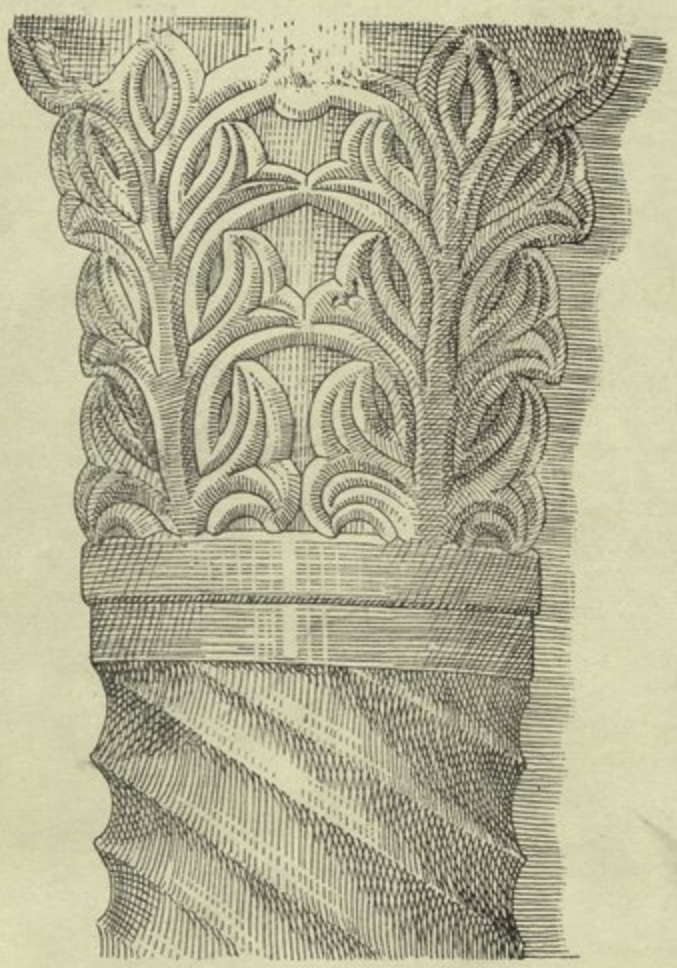

تاج العمود الذي بجانب لوح الرخام

وتهدّلت عناقيدها . وقد أُحيط هذا كله بإطار من الزخارف النباتية المتعرّجة

ونقوش هذا اللوح تماثل ، كما لاحظ هرزفلد ، الزخارف التي انتشرت زمن السلطان بيبرس وقلاوون . وتشبه الزخارف التي نجدها في التربة الظاهرية بدمشق .

زخارف الحجر — وفوق هذا اللوح ، نجد إطاراً من الحجر ، يلف حول الإيوان كله يبدأ من الحائط الغربي ، فيمر فوق اللوح وينتهي في الحائط الشرقي وفيه زخارف تماثل اللوح السابق : أغصان كرمة متشابكة متعرجة متكررة وأوراق كثيرة ، وعناقيد صغيرة وفيه يبدو «قرن الخصب» ، وهو قرن كان

قطعة من الإطار الحجري المزخرف

يُملأ بالزهور والفواكه ، عند اليونان ، ويرمز إلى الخصب والبركة . وهنا نجد واضحاً تأثير الفن الهلّيني في الفن الإسلامي . وفي منتصف الإطار ، في

محور الإيوان ، دائرة فيها زهرة الزنبق ، وهي شعار مملوكي . وهذا يثبت أن هذه الزخارف قد صُنِعت في زمن المماليك ، أي في زمن آقوش النجيبي ، أو

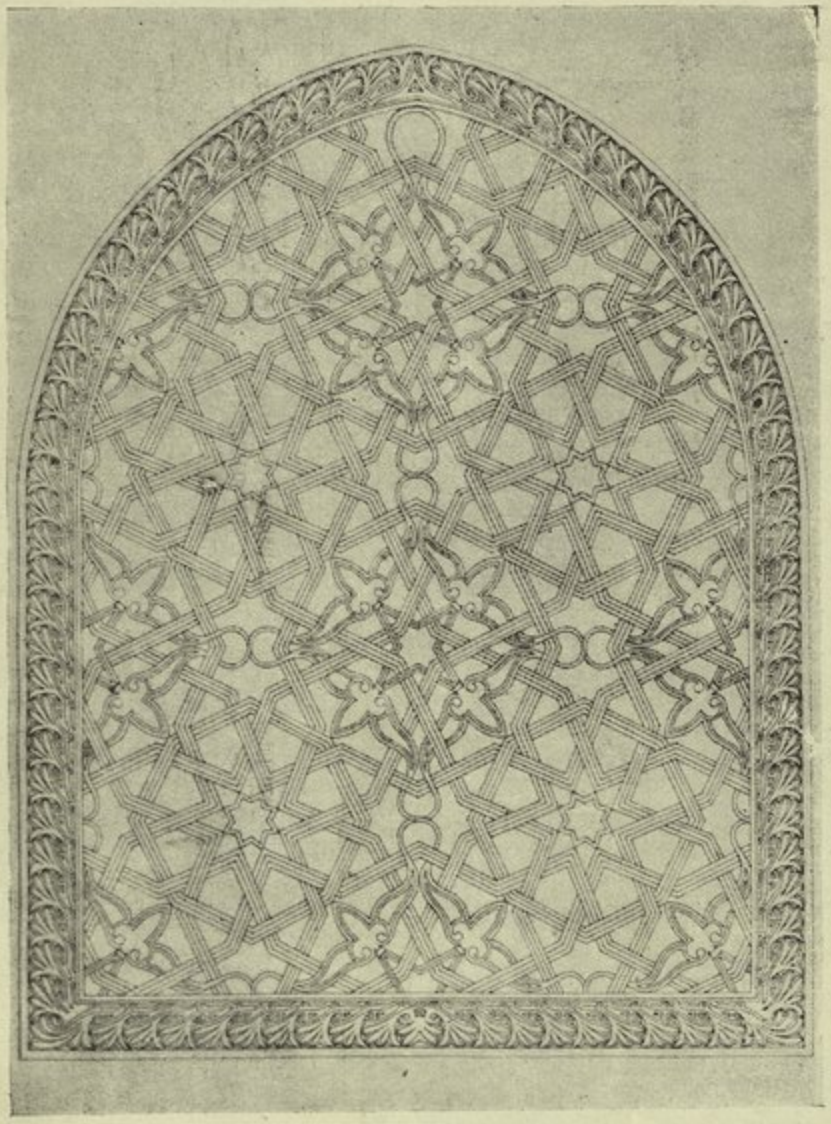

إحدى النوافذ الجصية

في زمن قلاوون . ونجد مثل هذا الإطار تماماً في الإيوان الشمالي .

زخارف الجص — ونجد هذه الزخارف في النوافذ . فقد وُجدت نافذة في يمين الإيوان الجنوبي ، من الجص المحفور ، فأعيدت النوافذ على غرارها . وتتألف النافذة من أشكال هندسية متشابكة ، تخرج من مثمن كبير ، في وسطه مثمن أصغر منه ، وفي هذا نجم مثمن ، يتوسط نجم مثمن آخر . وبين المثمن الكبير والصغير تدور زخرفة نباتية من أوراق علق بعضها ببعض ، فتؤلف دائرة . ويتكرر هذا النقش ويتناظر . وحول النافذة إطار من الجص نقشت فيه أوراق مترادفة . وهذه النافذة تشبه نوافذ المسجد المُظفّري بدمشق ، وتختلف في أشكالها عن النوافذ التي وجدت ، بعدُ ، في عصر المماليك .

زخارف ملوّنة على الجدران — أما الزخارف الملونة على الجدران ، فقد كشفتها مصلحة الآثار القديمة ، ونجدها في بواطن العقود ، وفي الأواوين .

ومما يجلب النظر صور طاووسين متقابلين ، فوق صدر الباب الثاني من ناحية الصحن وما تزل ألوان ذنبيهما ظاهرة ، ولكنها ضعيفة .

وكذلك نجد زخارف نباتية متشابكة متناظرة ، وهي في الغالب أوراق رشيقة متعانقة ، بلون أزرق على أرض بيضاء أو حمراء .

وفي الجدار الشمالي من الإيوان الشمالي نجد دائرة قطرها ٨٠ سم في داخلها دائرة أخرى قطرها ٥٠ سم وبين الدائرتين خطوط متوازية متكسرة . وفي الدائرة الصغرى زخارف نباتية متناظرة . ونلاحظ من الألوان التي في هذه الدائرة ، الذهبي ، البنفسجي ، الرمادي ، الأخضر ، الأزرق ، الأبيض .

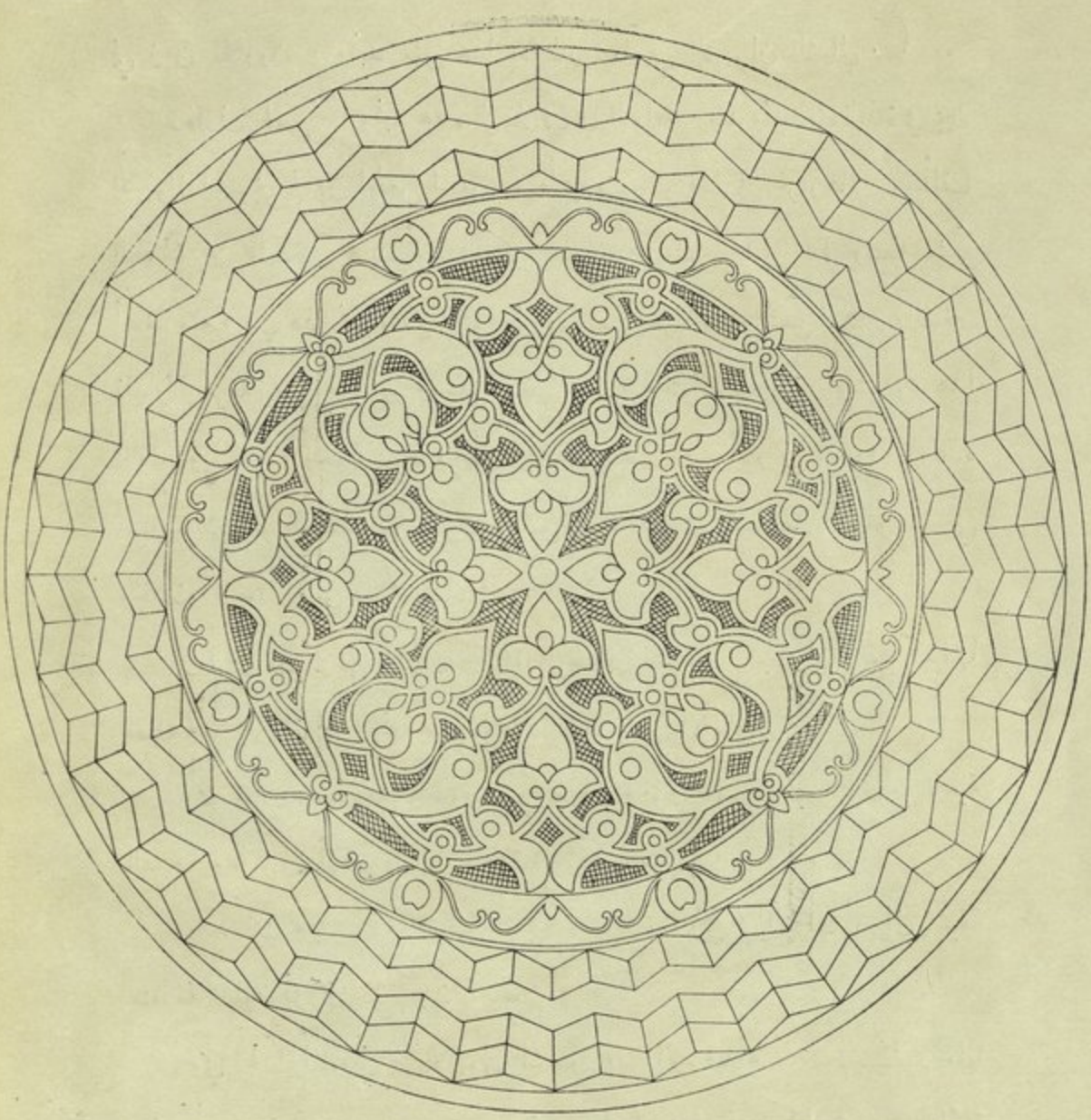

الدائرة الملونة في الايوان الشرقي

الكتابات القديمة: نجد في هذا البيمارستان عشر كتابات نقشت في النحاس ، أو الرخام أو الحجر أو على الجدران وهي :

الكتابة الأولى : في رأس باب البيمارستان ، سطر حفر في النحاس ، يمتد عرضا على مصراعي الباب ، نصّه مايلي :

« عز لمولانا الملك العادل العالم الزاهد المجاهد المرابط المؤيد المعظم المنصور نور الدين ركن الاسلام والمسلمين محي العدل في العالمين ناصر الحق بالبراهين منصف المظلومين من الظالمين ، قاتل الكفرة و لمشركين أبي القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين أدام الله أيامه »

الكتابة الثانية : فوق الباب الثاني ، تحت القبة المقرنصة ، وضعت بعد إصلاح البيمارستان زمن السلطان قلاوون . وهذا نصّها :

بسم الله الرحمن الرحيم . والذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ، ثم لا يُتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى ، لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وما تُقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ، هو خيراً وأعظم أجراً . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ، علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له أو صدقة جارية . والمولى الشهيد السلطان الغازي في سبيل الله نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر قدّس الله روحه ممن جمع الله لذاته وصف العالمين ومن شرط وقفه الذي أشهد به على نفسه أنه وقف على البيمارستان المعروف بانشائه وجعله مقرّاً لتداوي الفقراء والمنقطعين من ضعفة المسلمين الذين يُرجى برؤهم . وهو يستعدي إلى الله تعالى على من يساعد في تغيير مصارف وقفه وإخراجها عما شرط حاكمه ويخاصم بين يديه يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيدا . وجدد ما كان تهدّم من بنائه، وبناء أوقافه في الأيام السلطانية العادلة المنصورية الصالحيّة خلد الله سلطانها بنظر الفقير إلى الله تعالى عمر بن أبي الطيب غفر الله له ولمن أعانه من المسلمين على عمارة هذا الوقف

المبارك . وكان الفراغ منه في العشر الأوسط من شهر ربيع الآخر في سنة اثنين وثمانين وستمائة .

وأول من نقل هذه الكتابة من المستشرقين فان برشم سنة ١٨٩٤ .

الكتابة الثالثة : عصابة تلف حول القبة المقرنصة ، فيها آيات قرآنية . الكتابة بيضاء على أرض حمراء . فيها :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم . صدق الله العظيم . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق .....

الكتابة الرابعة : فوق الباب الثاني من ناحية الصحن . فيها .

« إنا فتحنا لك فتحاً مبينا ليغفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ويتمّ نعمته عليك ، ويهديك صراطا مستقيما . »

الكتابة الخامسة : على حافة عقد الدهليز الذي بعد الباب الثاني من ناحية الصحن كالسابقة يضاف إليها : وينصرك الله نصراً عزيزا هو الذي أنزل ...

الكتابة السادسة : في الغرفة التي على يمين الداخل ، في أعلى الحائط الجنوبي هذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين . جددت هذه العمارة المباركة في أيام مولانا السلطان الاعظم ... الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين خلّد الله سلطانه ببقاء ولده مولانا السلطان الملك السعيد ناصر الدنيا والدين محمد بتقدّم العبد الفقير إلى الله تعالى آقوش النجيبي الملكي الظاهري .

الكتابة السابعة : في الغرفة نفسها ، في أعلى الحائط الشمالي ونصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . جددت عمل هذه القاعة المباركة ودهانها وعمل صقايلها وبياضها في أيام مولانا السلطان ابن السلطان ابن السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين بدر الدين حسن خلّد الله ملكه في نيابة مولانا ملك الأمراء سيف الدنيا

LIBRARY OF BEIRUT

والهنايا أرغون شاه أعز الله أنصاره بنظر مولانا القاضي شمس الدين أبي عبد الله محمد بن القرشي تقبل الله منه ، في شهر المحرم سنة تسع وأربعين وسبعمائة . والحمد لله . وصلى الله على سيدنا محمد وسلم . »

الكتابة الثامنة : في الإيوان الجنوبي ، حول حافة العقد من ناحية الصحن فيها آيات قرآنية ظهر بعضها ومحي بعضها الآخر :

بسم الله الرحمن الرحيم . . . . . لمستقر . . . العرش . يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم . مخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ادعوا ربكم تضرعا وخفية ، إنه لا يحب المعتدين . ولا تفسدوا في الارض بعد إصلاحها . . . . . .

الكتابة التاسعة : في الإيوان الشرقي الكبير ، في الحائط الجنوبي ، فوق الخرستان ، قطعة من رخام أخذت من إحدى الكتائب . في وسطها :

« مولانا الملك العادل العالم الغازي الزاهد المجاهد نور الدين ركن الاسلام والمسلمين أبو القسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين .

وحولها : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أمر بتمام عمارته الفقير إلى الله في سعة رحمته لا للخلود فيه بل للمقام به مدة الاجل المحصي والعمر المقدر المقضي وذلك في سنة تسع وأربعين وخمسمائة . »

الكتابة العاشرة : في طرف العقد في الإيوان الشمالي ، من ناحية الحائط الشمالي عصابة فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم . فان تولوا فقل حسبي الله ، لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم . »

وفيه كتابة ثانية على حجر وهي مرسوم مملوكي ، لم أستطع قراءتها .

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

362.11:M96aA:c.1
المنجد، صلاح الدين
بيمارستان نور الدين
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01020774

American University of Beirut

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866

362.11
M96aA

General Library

362.11
M96aA
c.1